

الفصل الثالث

الفتوح الإسلامية والبحرية الإسلامية

طبيعة الفتوح الإسلامية - عوامل سرعتها - معاوية وقيام
البحرية الإسلامية - أهميتها للدولة الإسلامية - انتصار المسلمين
البحري في قبرص غزوة الصواري - قواعد الأسطول الإسلامي
في حوض البحر المتوسط - توافر المواد الخام - قطع الأسطول
الإسلامي - النار الأغريقية - ابن خلدون والسيادة البحرية
الإسلامية .

obeykandi.com

هذا هو بمجمل الوضع السياسى والأحوال العامة لعالم البحر المتوسط ،
عندما بدأت الفتوح الإسلامية .

ولقد بدأ بالفتح الإسلامى طور جديد فى تاريخ البحر المتوسط ، وفى
تاريخ الإنسانية ، فلم يكن ظهور الإسلام على سواحله بالحادث المؤقت
الذى سرعان ما تمحى آثاره ، بل على العكس ، كان انبثاق فجره ظاهرة
دائمة مستمرة ، صحبها تبديل جوهرى فى ثقافة المواطنين فى أغلب بلاد هذا
البحر وفى كل صقع وصلت إليه الفتوح الإسلامية . ولم يزل أثر ذلك التغير ،
يمثل الحقيقة الكبرى والظاهرة الجوهرية التى تميز هذا الجزء من العالم (١) .

وما يدعو للدهشة ، تلك السرعة الهائلة ، وذلك اليسر العظيم الذى رافق
الفتح العربى الإسلامى أينما سار ، ولعل مرجع هذا ، هو ذلك الإجماع العظيم
الذى ألم بالدول التى قدر لها أن تحتك بالدولة الإسلامية ، رغم تفوقها البحرى ،
ثم إلى ما سمع ولمس عن خصائص الإسلام وطبيعة تعاليمه القائمة على التسامح
وهذا أمر لم يؤلف فى تلك الفترة المليئة بالفتن المذهبية والصراع الدينى ، وهذا
ما حمل سكان شواطئه الشرقية والجنوبية والغربية ، على الترحيب بالفتح
الإسلامى ، وأصدق دليل على ذلك أن مصير الشام تقرر فى معركة واحدة ،
هى وقعة اليرموك ٥١٥ - ٦٣٦ م ، كما تقرر مصير مصر فى واقعة واحدة
هى وقعة حصن بابلون ٥٢٠ - ٦٤١ م وكذلك تقرر مصير أسبانيا فى
واقعة واحدة هى واقعة وادى لسكك Iakko أو فخص شريس Xeres عام
٥٩٢ - ٧١١ م (٢) .

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٠ (مقدمة شفيق غربال) ، ص ٨٧ (ترجمة أحمد عيسى) .

(٢) أرشيبالد لويس ص ٨٧ - ٨٨ ، Ivo. G. B. ، History of The Byzantine ،

Empire. PP. 40 - 52.

ومن أسباب شرعة الفتح الإسلامى كذلك ، ذلك الحماس الدينى الذى
بثه الإسلام فى قلوب الفاتحين ، وحسبى شاهد أو شاهدان من بين آلاف
الشواهد ، دليلا على هذا الحماس :

فهذا عقبة بن نافع ، الملقب بقاهر الروم والبربر ، أوطأ جيوشه أرض
السوس الأدنى ، ودحر البربر والروم ، ثم وقف على ساحل المحيط
الأطلسى ، ثم اندفع إلى البحر بفرسه ، حتى وصل الماء إلى ركابه ، ثم اتقى
سيفه وهزه قائلاً :

« اللهم فاشهد ، أنى لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً خضت
غازياً فى سبيلك .. وفى عودته أحاط به البربر والروم برأ وبجراً ، واشتدت
نكاية العدو بالمسلمين ، وكان أبو المهاجر دينار ، من موالى المسلمين
ووالى أفريقية قبل عقبة ، مقيداً بالحديد (١) ، فسمع بشدة وطأة البربر
والروم على المسلمين ، ففاض به الحزن ، وتمثل بقول أبى محجن الثقفى (٢) :

كنى حزننا أن ترتدى الخيلُ بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقها
إذاقت عذائى الحديد وأغلقت مصارع من دونى نهم منادياً

(١) كان عقبة قد أساء معاملة أبى المهاجر دينار . حين عاد إلى ولاية أفريقية زمن
يزيد بن معاوية ، فقد قبض على أبى المهاجر وقبده بالحديد ، وكان ذلك جزاء وفاء
لما فعله أبو المهاجر من قبل زمن معاوية ، إذ أساء عزل عقبة عن ولاية أفريقية
سنة ٥٠ هـ - ٦٧٠ م.

(٢) أبو محجن الثقفى مولى عبد العزيز بن مروان ، واسمه نصيب بن رباح ، وأمه
نوبية ، لجأت به أسود ، وباعه عمه ، وله قصة طريفة فى بيعة وعتقه ، وتوفى عام ١٠٨ هـ
٧٢٦ م . (راجع الأغاني ج ١ ص ٣٣٣ - ٣٣٧ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٥٠ - ٥٤ ،
النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٩ ، ٢٠٦) .

فأطلقه عقبة ، وأمره باللاحاق بالمسلمين قاتلا له : « الحق بالمسلمين ،
وقم بأمرهم ، وأنا أغتسم الشهادة » . فرفض أبو المهاجر وقال : « وأنا أيضاً
أريد الشهادة : » ، فقاتل الاثنان حتى قتل في معركة تاهوده عام ٥٦٢ هـ -
٦٨٢ م (١) .

ثم ذاك زهير بن أبي قيس البلوى العابد الزاهد ، ولي أفريقية عام
٥٦٩ هـ - ٦٨٨ م ، زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، قضى على
البربر وزعيمهم كسيلة الأوربي من البربر البرانس ، وأصر على مغادرة
أفريقية خوف الفتنة ، لأنه رأى بها ملكاً عظيماً ، وبما قاله :

« قدمت للجهاد . فأخاف أن أميل إلى الدنيا ، فأهلك ا ، . وقتل في
عودته أيضاً أمام الروم الذين بعثوا بأسطول حربي (٢) .

البحرية الإسلامية

وسر نكبة عقبة وزهير بن قيس البلوى هو افتقارهما إلى القوة
البحرية ، فضلاً عن مرارة الكفاح في شمالي أفريقية (٣) . حقيقة
إن العرب قد امتلكوا البر ، غير أن البحر لم يزل في قبضة أعدائهم من
الروم بصفة خاصة .

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، العبادي ص ٣٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ ، العبادي ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٥ - ٥٠ ، العبادي ص ٣٥ - ٣٦ .

والمعروف أن العرب المسلمين قد عمدوا إلى اتخاذ قواعد حكمهم بعيداً عن ساحل البحر ، كما في دمشق والفسطاط ، على حين اتخذها أسلافهم من اليونان والرومان على الساحل ، كما في أنطاكية والإسكندرية (١) ، إلا أن الضرورة قد أجبرت العرب على الاهتمام بالبحر ، ففضلاً عن الاعتبارات العسكرية ، هناك أهمية البحر الاقتصادية ، فهو طريق هام للتجارة العالمية ، وزاد في تنبيه العرب إلى أهمية البحر ، تلك الحملة البحرية التي أرسلها البيزنطيون عام ٢٥٥ هـ - ٦٤٥ م . عقب فتح مصر ، واستولت على الإسكندرية ، ولم تطرد إلا بعد جهد عنيف (٢) ، ثم تلك المقاومة العنيدة التي أبدتها مدينة أرواد : Aratus ، آخر حصن بحري قوى للبيزنطيين في سوريا ، بسبب الامدادات التي وصلتها عن طريق البحر (٣) .

ويعتبر معاوية بن أبي سفيان ، أول من نظم أسطولا في الإسلام ، وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو في البحر المتوسط . استأذن معاوية ، وهو يلي الشام من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ، لكي يسمح له الخليفة بركوب البحر ، لا عتزامه فتح جزيرة قبرص . وما قاله معاوية لعمر :

« يا أمير المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص ، فأنهمم الخليفة ،

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأثير أن من أسباب عودة الروم إلى الإسكندرية ، أن الروم قد «عظم عليهم فتح المسلمين للإسكندرية ، وظنوا أنهم لا يمكنهم البقاء ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم ، فكانوا من كان فيها من الروم ودعواهم إلى نقض الصلح ، فأجابوهم إلى ذلك » وكان هذا النقض على غير رغبة القوقس الذي ثبت على صلحه (راجع ابن الأثير ص ٣٣ - ٣٤) وانظر لإبراهيم العدوي : الدولة الإسلامية ولإمبراطورية الروم ص ٦٠ - ٦٣)

(٣) فيليب حتى ص ١٦٧

لأنه ، المشير بذلك ، وكتب إلى عمرو بن العاص ، وإلى مصر ، أن
« صف لي البحر وراكبه ، فإن نفسي تنازعني إليه ، أجابه عمرو :

« إنى رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب
وإن تحرك ، أزاع العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه
كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجى برق ، . فلما وقف عمر على كتاب
والى مصر ، كتب إلى معاوية :

« لا والذي بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، (١) .

وفي خلافة عثمان بن عفان (٢٣ - ٥٣٥ = ٦٤٤ - ٦٥٦ م) ، أعاد
معاوية طلبه موضعاً أهمية البحر ، فأذن له عثمان وأوصاه « لا تلتخب
الناس ، ولا تفرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائفاً فاحمله وأعنه ، (٢)
واستمع معاوية لنصيحة عثمان . واستعمل على البحر عبد الله بن قيس
الحارثي ، حليف بني فزارة (٣) .

وهكذا قامت البحرية الإسلامية ، وتشجع المسلمون على ركوب البحر
وارتياده ، ولا سيما بعد انتصارهم على قبرص عام ٥٢٨ هـ - ٦٤٨ م وانتصارهم
الساحق على البحرية البيزنطية عام ٥٣١ هـ - ٦٥١ م في الواقعة المعروفة
باسم « غزوة الصواري » . وهي وقعة هامة ، إذ اطمأن المسلمون بها على
إمكان تفرقهم البحري ، بعد أن انتصروا على صاحبة أقوى بحرية معاصرة .

(١) الطبري ٥ > ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) الطبري ٥ > ص ٥٢ .

(٣) يقال إن عبد الله بن قيس الفزاري غزا تخمين غزوة بحرية ، « من وث شانية
وصائفة ، ولم يفرق فيه أحد ولم ينكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جهده » ، وأن
لا يتلبه بعصا أحد منهم .

(الطبري ٥ > ص ٥٣ ، ابن الأثير ٣ > ص ٣٩ - ٤٠) .

كان الأسطول الإسلامي يتكون من مائتي سفينة ، وعليه بحارة من المصريين
والسوريين ، وتراوحت سفن الأسطول البيزنطي بين ٧٠٠ وألف سفينة .
ويقول مؤرخو المسلمين : إن الروم قد خرجوا في جمع لم تجمع الروم
منه منذ كان الإسلام ، (١) . التقى الأسطولان عند موضع فوينكس
Focais على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، ويقود الأسطول البيزنطي
الإمبراطور قسطنطين الثاني نفسه (Constans II) (٦٤١ - ٦٦٨ م) ، وعلى
الأسطول الإسلامي معاوية بن أبي سفيان ، ويقود أهل الشام ، وعبد الله
بن سعد بن أبي سرح والى مصر ، وإليه أمر البحرية الإسلامية .

بات المسلمون يقرأون القرآن . بينما أخذ الروم يضربون بالنواويس
وربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض . بسلاسل قوية وذلك لمهارتهم في
الحروب البرية من غير شك ، استحال على عدوهم أن يخترق صفوفهم
وانتهت المعركة بتدمير الأسطول البيزنطي ، وهرب الإمبراطور إلى
صقلية ، حيث عنقه أهلها لخيبته ، وما قالوه له : أهلك النصرانية ،
وأفقت رجالها ، لو أنا العرب ، لم يكن عندنا من يمنعهم (٢) ، ثم أدخلوه
الحمام وقتلوه .

اطمأن المسلمون إلى قوتهم البحرية ، فأولوها أكبر العناية . ومعاوية
ابن أبي سفيان ، سواء أكان في ولايته ، أم في خلافته ، هو صاحب
الفضل الأول في ارتياد المسلمين البحر وتنظيم البحرية الإسلامية ، ويقال
إن جملة ما أنفق في بناء السفن في مصر بلغت نحو سبعة آلاف دينار

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٨ - ٤٩ ، الطبري ج ٥ ص ٦٩ - ٧١ ، أرشيبالد لويس

ص ٩١ - ٩٢ . المدون ص ٦٣ .

سنوياً ، وذلك خلال الأربعين سنة التي تلت الفتح العربي الإسلامي لمصر (١) .

سار معاوية وخلفاؤه من بعده على منهج البيزنطيين في تنظيم البحرية ، وساعدهم على ذلك ، ما خلص لهم من دور الصناعة والمعدات البحرية ، في سوريا والإسكندرية ، وفضلا عن السفن التي غنموها في وقائعهم البحرية ، فكان لدى المسلمين سفن معدة للعمل ، وأخرى سهلة الإنشاء ، يضاف إلى ذلك ، السفن التجارية التي يملكها أهل البلاد في مصر وسوريا ، وهذه يسهل تحويلها إلى سفن حربية عند الحاجة .

استقدم معاوية بناء السفن من المصريين لبناء أسطول في عكا ، وهي التي غدت أهم قاعدة بحرية في الشام ، وكانت السفن تبني في القلزم والفسطاط والإسكندرية . وفي زمن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ — ٧٠٥ م) ، أنشئت قاعدة بحرية في قرطاجنة . وأرسل من أجل ذلك ألف صانع مصري من بناء السفن بأسره (٢) ، وفي زمن الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ — ٧١٥ م) ، صارت هذه القاعدة على بحيرة ، حرص موسى ابن نصير على أن يتصل بالبحر ، إذ كان موسى يدرك سر حماية خطوط مواصلاته البرية بعمليات بحرية (٣) .

وفي حوض البحر المتوسط الغربي ، قامت البحرية الإسلامية من الأندلس ، وهذه لم تنظم وتكتمل إلا زمن عبد الرحمن الثالث الملقب

(١) أرشيبالد لويس ص ٢١ ، ١١٦ .

(٢) أرشيبالد لويس ص ٢١ ، ١١٦ ، حسن حسنى عبد الهاد : قوصره (المخطئة التاريخية المصرية م ٢ عدد ٢ أكتوبر ١٩٥٩ م) ص ٥٨ .

(٣) أرشيبالد لويس ص ٢١ .

بالناصر (ت ٥٣٥٠ - ٩٦١) ، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم اكتراث الدولة الأموية في الأندلس بتكوين تجربة قوية منظمة دائمة ، غير أن هذا لا ينفي وجود بحرية إسلامية في الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر ، واشتغال الكثير من مغامري المسلمين في أسبانيا في الأساطيل الإسلامية في البحر المتوسط . فقد تنبه الأمويون في الأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي ، إلى أهمية وجود تجربة دائمة لهم ، وذلك زمن عبد الرحمن الأوسط (ت ٥٢٣٨ - ٨٥٢ م) بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، كان ذلك على أثر غارة المجوس (النورمان) عام ٥٢٠٩ - ٨٢٤ م ، لشواطئ أسبانيا ، حيث نزلوا عند الأشبونة (١) (Lisbõa ، اشبونة) ، وغنموا وعادوا قبل أن يتمكن المسلمون من اللحاق بهم . ولم يكف النورمان عن قرع شواطئ أسبانيا ، فأغاروا مرة أخرى على شرق الأندلس ووصلوا إلى سواحل غانة الجنوبية ، وفي عودتهم ، هزمهم المسلمون في البحر (٢) . وعندئذ انصرف النورمان عن الأندلس ، لفترة ، ولما كانت هذه الغارات البحرية مفاجئة لمسلمي أسبانيا ، استقر الرأي على إنشاء بحرية دائمة منظمة لحماية بلادهم (٣) .

وتم تنظيم البحرية في الأندلس ، واستكمالها ، زمن عبد الرحمن الناصر ، وتركز غالب القواعد البحرية في أسبانيا على طول الساحل الشمالي الشرقي بين طرطوشه Sortosa (٤) وبلنسية Valencia (٥) ، وكان ذلك

(١) وردت في المراجع العربية باسم أشبونة أو الأشبونة (انظر الروض المعطار ص ١٦ ، صبح الأعشى ص ٥ ص ٢٢٢) .

(٢) انظر البيان المغرب ص ٢ ص ١٣٠ - ١٣٢ . أعمال الأعلام ص ٢٠ .

(٣) العبادي ص ١١٠ - ١١١ .

(٤) الروض المعطار ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٥) الروض المعطار ص ٤٧ - ٥٥ .

للفداء المستحکم بين مسلمی أسبانيا وبين دولة الفرنجة ، وملوکها يومئذ من الکارولنجيين خلفاء الميروفنجيين ، مع ملاحظة أن بحرية الفرنجة كانت ضعيفة . ودون البحرية الإسلامية . ولا سيما زمن لويس النقي ابن شارلمان (٨١٤ — ٨٤٠ م) .

وكانت مدينة المرية Al mria^(١) ، في الجنوب الشرقي من أسبانيا ، هي القاعدة الرئيسية للبحرية الأندلسية ؛ وفيها معظم دور الصناعة ؛ كذلك وجد فيها أسطول دائم تألف من مائتي سفينة ؛ ويلها في الأهمية قاعدة بجاية Bougie^(٢) وطرا كونه Tarragona^(٣) ثم طرطوشه ولقنت^(٤) Alicante شمالی مرسية ؛ وكذلك شريش Yerez وطرش Tourox وشلب^(٥) Silves وقرطاجنة وبجائه^(٦) Bechina . ومن القواعد البحرية الأندلسية أيضا الجزيرة Algeciras جنوبي جبل طارق ويابسة^(٧) Ivisa إحدى جزر البليار . ولعل أعمر المناطق بالنشاط البحري ، هي المنطقة الواقعة بين لقنت وأكيله Aquila ، وأهمها اسكبره Escambara ، وهي في جزيرة في

(١) الروض المعطار ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٢ ، مؤنس ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٣) الروض المعطار ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٤) الروض المعطار ص ١٧٠ .

(٥) انروض المعطار ص ١٠٦ .

(٦) الروض المعطار ص ٣٧ — ٣٩ .

(٧) الروض المعطار ص ١٩٨ .

حوض البحر الأبيض الغربي ، عند مدخل خليج قرطاجنة الأندلسي .
وهي المعروفة بقرطاجنة الخلفاء (١) .

والأسطول المحيط الأطلسي الإسلامي قاعدة هي الأشبونة أو
(لشبونة) . . وفي كل قاعدة دار صناعة وإدارة خاصة للأساطيل ، وفي
وقت السلم يربط عدد من السفن في هذه القواعد ، وهذه تتجمع كلها في
مكان واحد في وقت الحرب . ولكل سفينة قبطان مسئول عن الأسلحة
والمحاربين ، وكبير للبحارة أو رئيس — كما يقول ابن خلدون — : « يدبر
أمر جريته بالرياح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه » (٢)

والملاحظ أن لرجال البحرية أجوراً عالية ، ويعتبر أمير البحر في دولة
بنى أمية بالأندلس « أحد الكبار الأربعة الذين تعتمد عليهم الدولة ، ويقال
له « قسم الخليفة » ، في السلطان ، فهذا يحكم البر وذاك يحكم البحر » (٣)

وبسيادة المسلمين على نحو ثلثي البحر الأبيض وجزائره ، أضحت لهم قواعد
بحرية ممتدة من شرقه إلى غربه : في عكا والإسكندرية . وجزيرة كريت
وتونس وصقلية وباريه Bari وجارليانو Garigliano وطارنت Tarant بجنوبي

(١) توجد ثلاث مدن بهذا الاسم ، أحداها الواقعة بأفريقية قرب تونس الحالية ؛ بينما
تقع الثانية والثالثة بالأندلس ، وهما قرطاجنة الجزيرة عند جبل طارق وهي مدينة قديمة
مهجورة ، وقرطاجنة الخفاء في إقليم مرسية . وهي ميناء صالحة للرسو (انظر الروض المعمار
ص ١٥١-١٥٢ ، انظر كذلك : مؤنس ص ١٢٢-١٢٣ ، كليليا : مجاهد العامري ص
١٨٥-١٨٦)

(٢) المقدمة ص ٢٨٢

(٣) ارشيدالد لويس ص ٢٤٢

إيطاليا ، وعند ساحل نابلي في جزيرة بونتزا Pontza ، وفي جنوبي فرنسا على ساحل بروفانس في فراكستيم Fraxinetum ، وكذلك في جزيرة كامرج Camergue وفي مدينة ماجلون Maguelonne غربي نهر الرون، هذا بالإضافة إلى قواعد جزر البليار: ميورقة Majorca ومينورقة Minorca ويابسة (١) gvisa ، وقواعد سواحل إسبانيا .

واقسم هذه القواعد أربعة أساطيل إسلامية وهي : أسطول سوريا ، وأسطول مصر؛ وأسطول شمالي أفريقية وصقلية؛ وأسطول الأندلس؛ على أن أهم مراكز القوى البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض ما كان في الوسط ؛ وهو شمالي أفريقية وصقلية ؛ زمن الأغالبة والفاطميين من بعدهم (٢) .

ويقابل هذه الأساطيل الإسلامية : أساطيل بزنطة ؛ فهناك أسطول مركزي إمبراطوري في القسطنطينية ؛ ويقابل هذا أسطول مصر؛ وأسطول بجنوب آسيا الصغرى وقواعده في جرر بحر إيجه وجزر السيكلاديز والدوديكانيز ويقابله أسطول سوريا ؛ ثم أسطول غربي البحر الأبيض ويقابله أسطول شمالي أفريقية (٣) .

وبانتقال الجزر الهامة في البحر الأبيض إلى أيدي المسلمين . فضلا عن أغاب سواحله؛ توافر لهم الحصول على المواد الأولية اللازمة لبناء السفن؛

(١) انظر الخريطة

(٢) ارشيبالد لويس ص ٢٥١

(٣) ارشيبالد لويس ص ١١٣ - ١١٤ ؛ ٢٢٩ ، بيتز ص ١٨٢ - ١٩١

وقد أمدنا البلاذري واليعقوبي وياقوت والاصطخري وابن حوقل والإدريسي والمقرئ وغيرهم ؛ بأنواع المواد التي توافرت للمسلمين ؛ نتيجة للسيطرة البحرية ؛ فحصلوا على الخشب والحديد من صقلية وشمال أفريقيا غربى تونس ؛ ومن الأندلس قرب طرطوشه ؛ وكذلك من ساحل الأناضول الجنوبي وجبال قليقيا ؛ وعن طريق التجارة مع البندقية حصلوا على الخشب والحديد اللذين يكثران فى شمالى إيطاليا وإقليم الثيول وذلك رغم احتجاجات البابوية على المتاجرة مع المسلمين فى المواد الحربية (١)

أما قطع الأسطول الإسلامى نفسه ، فهذه تنوعت فى الحجم والنوع والوظيفة . فمنها .

الشوانى : جمع شبنى أو شينيه ، وهى أهم قطع الأسطول الإسلامى وأطولها ، وتجدف بـ ١٤٣ مجدافا ، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وكذلك بها أبرام لحزن القمح وصهاريج للماء . ويقابلها فى اللغة الفرنسية (Galaie) (٢)

الحراريق : جمع حراقة وهى نوع من السفن يستخدم لحمل الأسلحة النارية مثل النار الإغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو ، ووجد فى مصر نوع من الحراقات استخدم فى النيل لحمل الأبرام ورجال

(١) ارشيبالد لويس ص ٢٤٩ - ٩٥٠ ، المقرئ نفح الطيب ج ١ ص ٩٣ - ٩٤ ؛

Scott II pp 57 - 61

(٢) مفرج الكروب ج ١ ص ١٣ حاشية ١ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ١٢

ص ١٨١ ؛ المقرئى السلوك ج ١ ص ٣٠٦ حاشية ٣ المقرئى خطط ج ٢ ص

١٩٤ - ١٩٥ : مؤنس : المسلمون فى البحر الأبيض ص ١٠٩

الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية (١)

البطس : جمع بطسة ، وتشتمل على عدة طبقات وبها أكثر من أربعين شراعا ، وتستخدم في حمل الأزواد والذخيرة وكذلك الرجال ، ويقال إنها تحمل نحو ١٥٠٠ شخص (٢).

البركوس : مركب صغير (٣).

الغراب : نوع من السفن ، وسمى كذلك لأن مقدمة هيكلها على شكل رأس غراب والجمع أغربة وغرابي (٤).

المسطحات : جمع مسطحة ومسطح ، وهي من كبار السفن (٥).

الطرائد : جمع طريدة لنقل الحبوب (٦).

الشلنديات : جمع شلندى ، وهي من كبار السفن المسطحة لنقل البضائع (٧).

(١) المقرئى خطط ج ٢ ص ١٩٤-١٩٥ ، المقرئى السلوك ج ١ ص ٣٠٦ حاشية ٣
ابن إياس بذائع الزهور ج ٤ ص ٥٢ - ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٣١ حاشية ١
؛ ابن تفرى بردى النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٧٣ . مؤنس: المسلمون في البحر الأبيض
ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٧ حاشية ١ ، مؤنس: المسلمون في البحر
الأبيض ص ١١٠

(٣) المقرئى السلوك ج ١ ص ٩٩١ حاشية ٢ . ابن واصل مفرج الكروب ج ٢
ص ٣٣٧ حاشية ٢

(٤) مؤنس : المسلمون في البحر الأبيض ١١٠

(٥) المقرئى السلوك ج ١ ص ٣٣٩ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٤

(٦) مؤنس : المسلمون في البحر الأبيض ١١٠

(٧) المرجع السابق

القرافير : جمع قرقورة لنقل المزن .

الحمالات : جمع حمالة لحمل الذخيرة .

الطرادات : جمع طراد و طرادة وهى مركب صغير أكثر شبيها بالبرميل وليس لها سطح ، وتستخدم فى مطاردة العدو لسرعتها ، وكذلك تستعمل فى حمل الخيول والفرسان (١) .

الدرمونة : مركب كبير لنقل الغلال ، وتستخدم فى مصر لنقل الغلال من الأهرام السلطانية وإليها وحمولتها خمسة آلاف إردب ، وهى مشتقة من الكلمة اليونانية (Drams) بمعنى السفينة (٢) .

الشبايك : جمع شبك أو شباك ، وهى سفينة صغيرة لها ثلاثة قلاع (٣) .

الفلايك : جمع فلوكة ، وهى سفينة صغيرة تتحرك بالمجاديف (٤) .
القوارب والزوارق : مراكب من غير شراع لنقل الأشخاص (٥) .

وجمزت الأساطيل الإسلامية بالنار الإغريقية Greek Fire وكان هذا سلاحاً سرياً أخفته بيزنطة إذ يرجح أن الأسطول الإمبراطورى الرئيسى فى القسطنطينية قد احتفظ لنفسه بهذا السلاح السرى الرهيب فى

(١) المرجع السابق . المفريزى السلوك ج ١ ص ٥٦ . ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢

(٢) خليل القاهرى زبدة كشف الممالك ص ١٢٢ - ١٢٣ ، بينز الإمبراطورية البيزنطية ترجمة مؤنس وزميله ص ١٩٠

(٣، ٤، ٥) مؤنس المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٠

ذلك الوقت إلا في الحالات الطارئة ؛ حيث يسمح للوحدات البحرية الأخرى باستخدامه . وكان هذا السلاح هو العامل الحاسم في انتصار البيزنطيين على الأسطول الإسلامي الذي حاصر القسطنطينية سبع سنوات بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة سليمان بن عبد الملك (١) ، ويبدو أن هذا السلاح استخدم لأول مرة عند البيزنطيين (عام ٥١٦ م) أى على زمن الإمبراطور أنستاسيوس الأول Anastasius (٢) ثم اكتشف من جديد أو أدخل عليه تحسينات ؛ ولنجاح هذا السلاح في إنقاذ العاصمة البيزنطية إبان أزمانها المختلفة ، أثره في زيادة الاعتقادات بكرامات القديسين وعبادة الصور المقدسة (٣) .

وهذا السلاح عبارة عن مواد ملتهبة من بينها ملح البارود ، ومن خصائصه الاشتعال عند ملامسته للهدف ؛ استخدمه المسلمون لأول مرة عند غارات الأغالبة على صقلية عام ٨٢٠ هـ ، ٨٢٥ م ؛ ولعل خيانة فيمي Euphemius البيزنطى فى صقلية ، وخروجه على الإمبراطور ميخائيل العجوز (٨٢٠ - ٨٢٩ م) واستبداده بالحكم فى الجزيرة ، لفترة من الزمن صلة بنقل هذا السلاح إلى المسلمين ؛ وذلك حين لجأ هذا الثائر إليهم بشمال أفريقيا ، وعاد بجيش إسلامى ، ولكن الجيش الإسلامى لم يلبث أن عمل لحسابه لا لحساب هذا المغامر (٤) كذلك استخدم المسلمون هذا السلاح فى الهجوم على سالونيك عام ٩٠٤ / ٩٠٣ هـ وبهذا السلاح

(١) انظر ابن الأثير ج ٥ ص ١١ History of the Byzantine Empire p 235 C. Med. H. Vol IV p. 3 .

(٢) حكم من ١٩١ الى ٥١٨ م

(٣) انظر الحركة اللايقونية فى الدولة البيزنطية المؤلف ص ٣ - ٨

(٤) C. Med. H., Vol. IV, pp. 134-5 ، وانظر ما يلى :

أحرق الفساطميون سفن أعدائهم في البحر الشيراني Tyrrherian Sea
عام ٥٣٢٥ / ٩٣٥ م. (١)

وبالإضافة إلى هذا السلاح الجديد ؛ لم يستغن العرب عن استخدام
الخيول ؛ عماد حروبهم ؛ حتى في الحروب البحرية ؛ فكانوا ينقلون الخيول
على سفنهم ؛ وينزلونها إلى البر في غزواتهم المختلفة ؛ وقد ساعدتهم هذه
الخيول على اقتناص الأسرى والاستيلاء على المغانم .

والملاحظ أن استخدام الخيول على هذا النحو ؛ كان مثلاً احتذاه
الغزاة الشماليون من الفيكينج Vikings ؛ بدأ هؤلاء يهبطون على سواحل
أوروبا الغربية خلال القرن التاسع الميلادي ؛ ولما لم يكن لدى الشماليين
خيول في بلادهم الشمالية ؛ فإنهم كانوا يجمعونها من السواحل التي ينزلون
فيها (٢) . كذلك كان ضمن معدات أسطول صقلية ؛ الاحتفاظ بأسراب
من الحمام ؛ للاتصال السريع بين مختلف وحدات الأسطول أو مع القيادة
العامة في البر (٣) .

هذه هي القوة البحرية الإسلامية ، التي ضمنت السيادة البحرية
للمسلمين فترة من الزمن ؛ يقول ابن خلدون :

« وكان المسلمون أعهد الدولة الإسلامية ، قد غلبوا على هذا البحر من

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٤٢ — ٢٤٣

(٢) Deanesly, OP. Cit., pp. 374-376

(٣) مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١١٢

جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم أو بشيء من جوانبها ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المألومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج... والمسلمون خلال ذلك كله. قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تجتاز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير — أي إيطاليا — المقابل لها من العدو الشمالية فتوقع بملوك الأفرنج وتنحن في ممالكهم... وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الحانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الإفرنجية والصقلية والجزائر الرومانية، لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكث من بسيط هذا البحر عدة وعدداً واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح... (١).

ورغم هذا التفوق ، فإن وجود ثلاث خلافت إسلامية في العالم الإسلامي. كان من أكبر عوامل التفكك للوحدة الإسلامية ، ومن ثم تفوقت البحرية البيزنطية على البحرية الإسلامية في كثير من الأوقات على الرغم من الانتصارات الرائعة التى حققتها البحرية الإسلامية، وبمقارنة البحرية الإسلامية ببحرية الفرنجة. كانت البحرية الإسلامية أقوى منها إذ كانت قوة الفرنجة كامنة في جيشها البرى ، ومع ذلك كان باستطاعة

الفرنجة زمن الكاروانجين بصفة خاصة أن يحشدوا سفنا فرنجية وإيطالية ويشحنوها بالمقاتلة عند الضرورة . وجهد الفرنجة في تكوين قوة بحرية لحماية شواطئ بلادهم من المسلمين . فأقام بييه ومن بعده شارلمان ، القلاع البحرية على سواحل فرنسا الجنوبية ، وكافحوا الغزوات الإسلامية ، إلا أن حماية الفرنجة للمسيحيين المقيمين بجزر البحر الأبيض الغربية . والقريبة من الشاطئ الفرنسي ، كانت عديمة الجدوى ، غير أن كفاح الفرنجة في حروبهم ضد المسلمين صار مثلاً احتذته أوربا في نضالها ضد الشماليين (١) .



الخلاصة: أن الدولة الإسلامية قد تحولت إلى دولة بحرية منذ أواخر القرن السابع الميلادي . ولم يعد البحر الأبيض بجزراً رومانياً . أوروبياً بل صار حداً للعالم الروماني والبيزنطي . كما صارت جزره داخلية في نطاق آسيا وأفريقية . ولم تعد داخلية في نطاق أوربا . وهذا فضلاً عن أجزاء كبيرة من سواحل البلقان وجنوبي إيطاليا وجنوبي فرنسا ومعظم شبه جزيرة أيبيريا (٢) .

بهذا الوضع غدا البحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وظل كذلك حتى حوالى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . فإن قوة الأسطول الإسلامى منذ العهد الأموى فصاعداً ، ثم قوة الأسطول المصرى زمن الفاطميين

(١) انظر Danesly, Op. Cit., pp. 374-76

(٢) مؤنس ص ١٣٢

بصفة خاصة ، ونشاط أسطول أبي الحسين مجاهد الداني العامري في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) من قواعده في جزر البليار وسردانية ، كل ذلك أتاح للمسلمين قدراً كبيراً من السيطرة على البحر الأبيض .

والواضح أن سيطرة المسلمين على الجزر ذوات المواقع الهامة ، كانت لأغراض دفاعية ، أو على الأقل انتهت إلى نتيجة ، هي تحقيق أغراض الدفاع فمثلاً حمت قبرص ومدينة طرسوس القريبة منها ، شواطئ سوريا ، وكانت كريت تحمي مصر ، كما حمت صقلية شمالاً أفريقية ، وكذلك قامت جزر البليار بحماية الأندلس

وبهذه السيطرة تحكم المسلمون في مداخل البحار المتصلة بالبحر الأبيض فقد سدت جزيرة كريت مدخل بحر إيجه ، كما أغلقت جزيرة صقلية وثغر مونت جاريانو مدخل البحر التيراني . كذلك سدت جزر البليار وحصن فرا كينيتوم خليج ليون Leons^(١) .

لذلك يمكن القول إنه منذ أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) صارت هذه الشواطئ في مأمن من أي غزو خارجي لأول مرة منذ منتصف القرن السابع الميلادي^(١) .

* * *

(١) راجع : أرشيبالد لويس ص ٢٤٨ - ٣٢٤